تفسير إبن كثير

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

قول تعالى : واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون أي :خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى ، عليه السلام ، وقد كانوا يسومونكم ، أي : يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب . وذلك أن فرعون - لعنه االله - كان قد رأى رؤيا هالته ، رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر ، إلا بيوت بني إسرائيل ، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل ، ويقال : بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم ، يكون لهم به دولة ورفعة ، وهكذا جاء في حديث الفتون ، كما سيأتي في موضعه [في سورة طه] إن شاء االله ، فعند ذلك أمر فرعون - لعنه االله - بقتل كل [ذي] ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل ، وأن تترك البنات ، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها .وهاهنا فسر العذاب بذبح الأبناء ، وفي سورة إبراهيم عطف عليه ، كما قال : (

يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) [إبراهيم : 6] وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص ، إن شاء االله تعالى ، وبه الثقة والمعونة والتأييد .ومعنى (يسومونكم) أي : يولونكم ، قاله أبو عبيدة ، كما يقال : سامه خطة خسف إذا أولاه إياها ، قال عمرو بن كلثوم :إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فيناوقيل : معناه : يديمون عذابكم ، كما يقال : سائمة الغنم من إدامتها الرعي ، نقله القرطبي ، وإنما قال هاهنا : (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) ليكون ذلك تفسيرا للنعمة عليهم في قوله : (يسومونكم سوء العذاب) ثم فسره بهذا لقوله هاهنا (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) وأما في سورة إبراهيم فلما قال : (وذكرهم بأيام االله) [إبراهيم : 5] ، أي : بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك : (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادي .وفرعون علم على كل من ملك مصر ، كافرا من العماليق وغيرهم ، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا ، وكسرى لكل من ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافرا [والنجاشي لمن ملك الحبشة ، وبطليموس لمن ملك الهند] ويقال : كان اسم فرعون الذي

كان في زمن موسى ، عليه السلام ، الوليد بن مصعب بن الريان ، وقيل : مصعب بن الريان ، أيا ما كان فعليه لعنة االله ، [وكان من سلالة عمليق بن داود بن إرم بن سام بن نوح ، وكنيته أبو مرة ، وأصله فارسي من استخر] .وقوله تعالى : (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم . أي : نعمة عظيمة عليكم في ذلك .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس [في] قوله : (بلاء من ربكم عظيم) قال : نعمة . وقال مجاهد : (بلاء من ربكم عظيم) قال : نعمة من ربكم عظيمة . وكذا قال أبو العالية ، وأبو مالك ، والسدي ، وغيرهم .وأصل البلاء : الاختبار ، وقد يكون بالخير والشر ، كما قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) [الأنبياء : 25] ، وقال : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) [الأعراف : 168] .قال ابن جرير : وأكثر ما يقال في الشر : بلوته أبلوه بلاء ، وفي الخير : أبليه إبلاء وبلاء ، قال زهير بن أبي سلمى :جزى االله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلوقال : فجمع بين اللغتين ؛ لأنه أراد فأنعم االله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده .[وقيل : المراد بقوله : (وفي ذلكم بلاء

) إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء ؛ قال القرطبي : وهذا قول الجمهور ولفظه بعدما حكى القول الأول ، ثم قال : وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه ، والبلاء هاهنا في الشر ، والمعنى في الذبح مكروه وامتحان] .